الصبحي بن أحمد هدوي

تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها؛ من أجل سيادة لغويّة !

مقدّمة :

سنسعى في بحثنا أن نعرّف بإحدى آليات المحافظة على السّيادة اللّغويّة هي عندنا تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها، بغاية تشجيع التّواصل وتبادل الخبرات بين الأفراد والمؤسّسات والهيئات الدّوليّة الحكوميّة والأهليّة، ولرفع مستوى الوعي باللّغة العربيّة وثقافتها وتشجيع الجهود الّتي تسهم في دعمها وتعزيز مكانتها بين لغات العالم، إضافة إلى تشخيص التّحديات والمشكلات الّتي تواجه الأفراد والمؤسّسات الحكوميّة والأهليّة في مجال اللّغة العربيّة وثقافتها وتقديم الحلول والاقتراحات المناسبة، وفي النّهاية و وصلا بهذا المسعى نرمي إلى تشجيع المؤسّسات المهتمّة باللّغة العربيّة ودعمها.

ولتحقيق مثل هذه الأهداف رأينا أن نشتغل على تجربة تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها لنقف على ما حقّقت للّغتنا في مسيرة رسم كينونتها الكونيّة، ليس لتأكيد عالميتها عبر توسيع عدد الألسن الّتي تلهج بها لأنّ هذه الكينونة العالميّة متأصّلة فيها ولا يرقى إليها شكّ بل ولا يصحّ فيها جدل، وإنّما لتثبيت هذه السّمة الكونيّة فيها وتحصينها وجعلها مقنعة. نبحث في هذه التّجربة: تاريخيتها وامتداداتها في الثّقافة الكونيّة عن طريق طلاّبها من ذوي اللّغات الأجنبيّة الّذين يفدون باستمرار لتعلّمها كما يحرص معلّموهم على تعليمهم إيّاها؛ لا مجرّد لغة محدودة بحدود الأنظمة اللّسانيّة: الصّوتيّة والصرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة (...)، بل ثقافة وحضارة وهويّة تاريخيّة تصنّف ضمن المعارف وتنأى عن النّكرات.

ونحاول خلال بحثنا نسلّط الضّوء على الحوافز الواقعيّة على استقطاب عدد أوفر من الطّلبة الأجانب ليتعلّموا العربيّة، وننظر في مدى وعي أبنائها بالمسؤوليّة القوميّة تجاه لغتهم، فلذلك معناه عندنا وهو معيار كفيل بأن يحدّد لنا ما ينتظرها لتكتسب دورا رياديّا في العالم وإن

إلى حدّ، ونستطيع في ضوئه أن ندرك ما ينتظرنا في مسيرة تعليمها لغير النّاطقين بها من تحدّيات وصعوبات جسام لا بدّ ألاّ نهاب تجشّمها أفرادا ومؤسّساتٍ وهيئاتٍ حكوميّةً وأهليّةً.

وبناء عليه، فإنّ بحثنا يصدر عن استقراء ما يحفّ بتجربة ميدانيّة اكتهلت في جلّ مؤسّساتها من أجل التّأسيس لتعاون بنّاء بين كلّ المهتمّين باللّغة العربيّة حتّى تتضافر الجهود لتحصين "لغة الضّاد" بعد إذ هي محصّنة بمجرّد أن تفرّدت بهذا الوسم، ولتنزيلها المنزلة الّتي نرتضيها لها بين لغات العالم لا عند أبنائها النّاطقين بها أصلا المرتبطين بها ثقافة وحضارة فحسب، ولكن عند غيرهم ممّن تعلّموها أو يتعلّمونها أو ينوون تعلّمها أو يحتاجون إلى إغرائهم بتعلّمها لتكون وسيطا فاعلا بيننا وبينهم تصلنا بهم وتصلهم بنا لغة إقناع بوجود في عالم البقاء فيه للمقنع حتّى نحقّق بالعربيّة انتشارنا على رقعة المكان واستمرارنا في سيرورة الزّمان عبر ما نبثّه منها في أهاب الآخرين ممّن يتعلّمونها في مؤسّسات تعليمها لغير للنّاطقين بغيرها.

فبحثنا حينئذ لا يتّجه نحو إثبات عالميّة اللّغة العربيّة أو المطالبة بتحويلها إلى لغة عالميّة، فذاك مكسب قائم، ولكنّه يعمل على استقصاء آليّة نعدّها من آليات صيانة هذا المكسب لا تعدو أن تكون تعليمَها للنّاطقين بغيرها. ويشتغل على هاجس استعادة سيادة لغويّة ضاعت بين السّواد الأعظم من أبناء العربيّة ممّن ابتلوا بـ"الازدواجيّة اللّغويّة الأمّارة" بحسب اصطلاح عالم الاجتماع التّونسي محمود الذوّادي، تلك الازدواجيّة الّتي تجعل أصحابها غير متحمّسين للذّود عن لغتهم وغير مبالين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشّخصيّة بحيث تصبح عندهم كاللّغة الثّانية أو الثّالثة. وبما أنّ هذا السّلوك الّذي يتناقض مع أبجديّة كسب رهان السّيادة اللّغويّة يتأكّد عند التّعامل مع غير النّاطقين بالعربيّة خاصّة، نسعى إلى تبنّي فكرة التّأسيس لهذه السّيادة عبر دعم جهود المؤسّسات القائمة على تعليمها للأجانب، لا بمعنى أنّها حلّ يعوّض عن تفويت أبنائها في استعمالها في كثير من شؤون حياتهم وإنّما بمعنى أنّها جهد يعاضد جهودا يفترض أن تبذل في المصالحة بين العربيّة وأبنائها خلال منظومات تربويّة تجعل تعلّمها أولويّة الأولويّات.

1 – اللّغة عنوان شخصيّة الأمّة تستوجب التّحصين:

لا شكّ أنّ لكلّ أمّة شخصيّة وأنّ لهذه الشّخصيّة ملامحها الّتي تميّزها عن غيرها وتنحت كيانها في حضارة الإنسان، ولا ريب أنّ بين اللّغة وشخصيّة الأمّة تلازم في الارتقاء والتّقدم وفي التّراجع والانحطاط، في الأخذ بأسباب الحضارة وفي التّجرد منها، «فإن ارتقت اللّغة وازدهرت فذلك دليل على أنّ الحضارة قد ارتقت، وإن ذبلت اللّغة وأُهملت فذلك دليل على أنّ شخصيّة الأمّة قد ذبلت وانحطّت» **(1)**.

فالإحاطة باللّغة حينئذ متأكّدة والسّهر على إشاعة استعمالها مطلوب لتحصين شخصيّة الأمّة من أن تذوي هامتها. ويكفي دليلا على ذلك أنّ عوامل الثّقافة عادة ما تستوي مقياسا لمدى تطوّر الأمّة وعمق أثرها في التّجاذبات الكونيّة تضاهي المحكّات الاقتصاديّة والعسكريّة والسّياسيّة. فإذا غزت ثقافة أمّة مّا شعبا جرّته إلى التّقليد والمحاكاة لأنّ الإنسان مجبول على الانشداد إلى المغاير المختلف، لا سيما إن رأى في المختلف فضلا وإضافة. واللّغة أهمّ عوامل الثّقافة لا بدّ أن تكون تلك سبيلها، ولا مناص من أن يكون ذاك نهجها. وبما أنّها عنوان شخصيّة الأمّة فينبغي لها أن تظلّ متجدّدة وتستمرّ نبض حياة هذه الأمّة لا في أهاب أبنائها فحسب وإنّما في صدور متعلّميها من أبناء الأمم الأخرى كذلك. ولكن كيف يكون ذلك؟ أ بمجرّد أنّ نعلّم الطلاّب الأجانب مبادئ اللّغة العربيّة أم أنّ الجهد يتجاوز ذلك إلى نحت سياسة لغويّة جادّة تضمن للعربيّة انتشارها وتؤكّد عالميّتها لغةَ حضارة وعلم وأدب وفنّ (...)؟

إنّ الوعي بمثل هذه الإشكاليات قد جعل توسيع مجال الكفايات في تعليميّة اللّغات هاجسا أساسيّا، إذ يعمل معلّمو اللّغات على توسيع هذا المجال من الكفاية اللّغويّة إلى الكفاية التّواصليّة، ومن هذه الكفاية نحو الكفاية الثّقافيّة الّتي تعني أن يُزوّد المتعلّم بالمعطيات الثّقافيّة الأدنى بما يمكّنه من التّواصل مع النّاطق باللّغة الّتي يتعلّم، ولنا أن نفهم هذه الكفاية في تعليم اللّغة العربيّة ضمن أفق تواصليّ، ذلك أنّ كلّ ما يتّصل فيها بالمجاز إنّما يحتاج من متعلّمها إلى زاد ثقافيّ ييسّر عليه إدراك المعنى المجازي، وكذلك الحال بالنّسبة إلى الأعمال اللّغويّة،

فكلّ منها عمل اجتماعي ثقافي يعبّر عن علاقة مّا بالمخاطب أي بالآخر. بل إنّ في التّخاطب ثقافة تواصليّة غير لفظيّة يحتاج إليها متعلّم اللّغة العربيّة من غير النّاطقين بها أصلا (2).

ونظرا لتموضع الثّقافة الدّقيق من اللّغة كان لهايمس (Hymes) (3) مثلا عناية فائقة بالكفاية التّواصليّة الثّقافيّة، إذ انشغل طويلا بتخاطب النّاس واشتغل على خطاباتهم، فتوصّل إلى نتائج هامّة تتعلّق بما هو لفظي وما هو غير لفظي جعلته يؤكّد على مسألة تواصليّة أساسيّة هي صلة اللّفظي بالحركي، ويعتقد الباحثون في مجال تعليميّة اللّغة العربيّة أنّ غضّ الطّرف عن ذلك غير مقبول، ولذا يجب أن تراعى هذه العلاقات لتأسيس منهجيّة تعليم إجرائيّة في الشّأن. أمّا نحن فما يهمّنا من مثل هذه النّتائج فهو القول بتمكّن الثّقافة من اللّغة وصلتها العميقة بها، وهو ما يجعل اللّغة تستوعب ثقافة الأمّة فتستحيل حينئذ عنوان شخصيّتها حتّى إذا ما علّمنا هذه اللّغة وجب علينا الوعي بأنّنا نعلّم ثقافة وحضارة وتاريخا...

إنّنا بالمحصلة نعلّم "شخصيّة أمّة" لا بدّ أن نعرف كيف نعلّمها لتلقى هذه الشّخصيّة كلّ الاحترام من متعلّمها ونظفر حينئذ بانتصاره لثقافتها، لحضارتها، ولتاريخها فيكون اتّصاله بها ويكون عبره حوارها مع أمّته بدل صراعها. وهو لعمرنا عندئذ بوّابة تفتح على آفاق جديدة نحو كونيّة العربيّة، لأنّنا بذلك ننقل التّفاعل بين اللّغات من حيّز النّاطقين أصلا بلغة الضّاد إلى حيّز مختلف هو حيّز متعلّميها من غير النّاطقين بها.

ولا حرج حينئذ إذا اعتبرنا ذاك التّفاعل أمرا محمودا لأنّه قد أصبح على أساس تبادل يعزّز الاحترام ويؤكّد في أبناء العربيّة اعتزازهم باللّغة القوميّة وهم يلاحظون غيرهم يقبل التّعامل معهم بلغتهم مثلما يقبلون التّعامل معه بلغته. وهو ما من شأنه أن يقي لغتنا من مظاهر المسخ بألفاظ من اللّغات الأجنبيّة ومن إهمال استعمالها وجها خطيرا للتّبعيّة الثّقافيّة. ويكرّس في ذات الوقت سلوكا لغويّا جديدا يؤسّس "للتعاون الثّقافي" بدل التّبعيّة سواء كانت بوعي أو عن غير قصد ودونما وعي. فتعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها، إذن، سبيل إلى تحصين شخصيّة الأمّة من أن تتهاوى وطريق إلى أن يُقرأ لها في زحام العولمة ألف حساب. ولكن لسائل أن

يسأل هنا عن العوامل الّتي من شأنها تحفيز القائمين على تعليم العربيّة للأجانب حتّى يحقّقوا للغتنا سيادتها ؟

2 – العوامل المحفّزة على تعليم العربيّة للأجانب النّاطقين بغيرها:

يقرّ الباحثون للّغة العربية مبدئيّا فرص طيّبة لأن تكون في المستقبل لغة ذات مكانة إقليمية ودولية تؤهّلها للاضطلاع بدور رياديّ في العالم، وتؤهّلها لذلك عوامل كثيرة منها مثلا (4):

- أنّها اللّغة القومية لأكثر من مائتي مليون نسمة يتواجدون بمنطقة تعدّ من أهمّ مناطق العالم على المستويين الاستراتيجي والاقتصادي.
- أنّها تستوعب الحضارة العربيّة الإسلامية بوصفها إحدى أعرق الحضارات في تاريخ البشريّة.
- أنّها ذات قيمة معترف بها في المجالات الحيويّة كالاقتصاد والسياسة والثّقافة...
- أنّها لغة يحتاجها الخبراء والبحّاثة في ميادين عدّة شأن تاريخ الأديان والتّاريخ الحضاري والسياسي للمنطقة العربيّة والعالم الإسلاميّ.
- أنّها لغة يجب على كلّ من يتعامل مع العرب أن يتعلّمها، سواء كان تعامله اقتصادياً أو ثقافيّا أو حكومياً أو دينياً بوصفها لغة الإسلام.

ومن ثمّة، فإنّ للّغة العربية فرصة كبيرة لأن تكون في المستقبل إحدى اللّغات الحيّة الرئيسة في العالم، إلاّ أنّ تلك الفرصة لا تتحقّق إلاّ إذا تضافرت الجهود الّتي يبذلها أبناؤها من الغيورين عليها للاستفادة من كلّ العوامل المتاحة، ونعتقد أنّ عملهم على تعليمها لغير النّاطقين بها من المعنيين بتلك العوامل الّتي عدّدناها سلفا يعدّ من أهمّ وسائل تأكيد مكانة العربيّة بين لغات العالم الحيّة لأن لا حياة للغة تظلّ معزولة عن الاستعمال الحيوي اليومي بمختلف أشكاله الّتي تبدو على قدر كبير من التّشابك والتّداخل في ظلّ نظام عالميّ لا تكاد الحدود تستقرّ فيه على وجه ثابت.

وفضلا عمّا سلف، فإنّ الإحصائيّات المنبثقة عن الدّراسات والبحوث في مجال اللّغات سواء تلك الّتي تصرّح بها هيئات ومنظّمات أمميّة تهتمّ بالشأن اللّغوي للدّول الأعضاء أو تلك الّتي يتوصّل إليها الدّارسون والباحثون في البلاد العربيّة وفي العالم تؤكّد كلّها على وجود مؤشّرات هامّة تجعل اللّغة العربيّة مؤهّلة لمكانة عالميّة رياديّة رغم ما يشوب طريقها إلى هذه

المكانة من صعوبات ينبغي على أبنائها تجشّمها ومكابدتها والسّهر على تظليلها، ومن هذه المؤشّرات (6):

- أنّ 420 مليون من البشر يتّخذون العربيّة لغة تواصل، وهو ما يجعلها اللّغة السّادسة من حيث عدد النّاطقين بها في العالم.
- أنّ العربيّة لغة رسميّة بالنّسبة إلى 22 دولة عربيّة سواء بوصفها لغة رسميّة وحيدة أو إلى جانب لغة أو لغتين أو ثلاث.
- أنّها تعتمد لغة رسميّة إلى جانب لغة أخرى بالنّسبة إلى بعض الدّول غير العربيّة مثل إسرائيل وإيران ومالطة والتّشاد...
- وأنّها، من ثمّة، اللّغة الثّالثة عالميّا من حيث عدد البلدان بوصفها لغة رسميّة أولى أو ثانية...
- أنّها لغة دين أكثر من مليار مسلم، يستعملها من غير العرب بينهم 120 مليون استعمالا مقبولا.
- أنّها لغة مستعملة بعدد من الدّول الإفريقيّة كالنّيجر ومالي و السنغال والتّشاد، كما أنّها تستعمل في بعض دول آسيا شأن تركيا وإيران وطاجاكستان وبنغلادش واندونيسيا.
- أنّها من اللّغات الإحدى عشر الأكثر انتشارا في العالم بحسب عدد النّاطقين بها، وهي الصّينيّة والإنجليزيّة والإسبانيّة والعربيّة والهنديّة والرّوسيّة والبرتغاليّة والبنغاليّة والألمانيّة واليابانيّة والفرنسيّة.
- أنّها من بين اللّغات الستّ الّتي يعرف النّاطقون بها نموّا ديمغرافيّا أكثر من غيرها (الإسبانيّة، البرتغاليّة، العربيّة، الهنديّة، السواحليّة، الماليزيّة)
- أنّها إحدى اللّغات الرّسميّة الستّ المعتمدة في المنتظم الأممي منذ 1974.
- أنّها تحظى بيوم عالمي مخصّص للاحتفاء بها هو الثّامن عشر من ديسمبر، وآخر أقرّته لها الالكسو يوافق الفاتح من مارس.
- أنّها اللّغة الرّسميّة لعدد من المؤسّسات والمنظّمات الإقليميّة والدّوليّة مثل الجامعة العربيّة والاتّحاد الإفريقي والمؤتمر الإسلامي...

ونحن إذ عمدنا إلى جرد هذه المؤشّرات وتعداد ما به يُستشرف مستقبل العربيّة لغة عالميّة ذات مكانة محترمة بين لغات العالم الحيّة، فإنّ ذلك لا يهمّنا في ذاته بقدر ما يساعدنا

على تأكيد الحوافز الجادّة الّتي تدفعنا نحو مزيد الحرص على تفعيل الجهود الفرديّة والجماعيّة في سبيل تعليم العربيّة لغير أبنائها، ونحسب أنّ قيمة هذه المؤشّرات في ذلك لا يرقى لها شكّ، فيكفي أنّ عالميّة اللّغة العربيّة أمر تثبته الأرقام ويؤكّده واقعها في المنظّمات والمؤسّسات الدّوليّة والإقليميّة فيما أسلفنا. ثمّ إنّ العمل على نشر هذه المؤشّرات عبر وسائل الإعلام والتّذكير بها في الملتقيات الّتي تُخَصّ بها اللّغة العربيّة كمؤتمرها هذا وسيلة ناجعة لتذكية الجهود المبذولة في مجال تعليم العربيّة للأجانب. فهي في اعتقادنا مصادر دافعيّة قويّة ترفع من مستوى الإحساس بالمسؤوليّة تجاه العربيّة في الأوساط التعليميّة الّتي اختارت هذا التّوجه. وتبعث خلالها الأمل في إمكان استقطاب الأجانب بأكثر كثافة لتعلّم العربيّة، وهو ما يؤمّن لهذه الأوساط إشعاعا عالميّا يتوسّع بتوسّع إشعاع العربيّة. فتستحيل حينئذ رافدا من أهمّ روافد الامتداد الكوني للعربيّة خاصّة إذا وعى القائمون عليها وغيرهم ممّن يستطيعون إفادتها ومساعدتها على تحسين مردودها من السّاسة والعلماء والباحثين أنّها قناة من قنوات التّفاعل مع الآخر من أجل تعاون سياسيّ واقتصاديّ وثقافيّ يقوم على أساس التّبادل لا على جهة الهيمنة الّتي لا تؤدّي إلاّ إلى التّبعيّة. وعليه، فإنّ مضاعفة الجهود في مجال تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها حريّ بأن يؤهّلها لخوض المنافسة على المراتب الرّياديّة للغات الحيّة في العالم باقتدار، فإذا ما كان لها ذلك تحصّنت ممّا يتهدّد عديد اللّغات من مخاطر التّراجع والضّعف، وحصّنت في ذات الوقت هويّة حضاريّة تمثّلها، وأمّنت لها سيادتها. ولكن ما حظّها مبدئيّا من الصّراع الرّاهن بين لغات العالم اليوم على المكانة العالميّة؟

3 – الصّراع بين اللّغات على المكانة العالميّة وحظّ العربيّة منه في فكر أبنائها:

يشهد الواقع المعاصر للّغات صراعا "عنيفا" تخوضه الدّول المتقدّمة عبر تعليم لغاتها للأجانب، كلّ يسعى إلى ابتكار أحدث الوسائل وتوفير أنجع الطّرائق في سبيل أن يتعلّم لغته عدد أوفر الأجانب غير النّاطقين بها. ولذلك ما انفكّت طرائق تعليم اللّغات في انثيال مستمرّ. ويرى الباحثون في هذا المجال أنّ هذا التّنافس المحموم هو الفيصل مستقبلا في تقرير مصير اللّغات الحيّة وتحديد منزلتها الكونيّة. ولهذا السّبب ترصد الدّول الأموال الطّائلة في مجال تعليم لغاتها إلى غير أبنائها. وهذا الضخّ الهائل للأموال إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حساسيّة المسألة اللّغويّة وارتباطها الوثيق بالسّيادة وقدرتها على التّأثير في موازين القوى العالميّة. وهو ما تكشف عنه الرغبة في انتزاع السّيادة اللّغويّة على المنظّمات الأمميّة وفروعها بفرض لغة مّا

لغة رسميّة أو لغة عمل على الأقل. ولذا يعتبر الكثيرون اعتماد اللّغة الإنجليزيّة لغة رسميّة في المحافل الدّوليّة تهديدا مباشرا للتّنوع الثّقافي في العالم بما يعني أنّه انتصار لنظام الثّقافة الواحدة الّذي يمحو مظاهر الخصوصيّة الثقافيّة ويطمس ملامح الهويّة الوطنيّة أو القوميّة، وهذا الواقع اللّغوي العالمي يمثّل خطرا على السّيادة اللّغويّة للأقطار والقوميّات الّتي تفقد لغاتها مكانتها العالميّة وينحسر استعمالها عند حدود القطر أو الإقليم، تؤكّده حدّة الصّراع الّذي ما يفتأ في احتدام متواصل بين الدّول ذات الحضور الدّائم في المنظّمات العالميّة.

وفي ضوء هذا الصّراع ينبغي أن نتساءل بمسؤوليّة عن موقع العربيّة من هذا الحراك اللّغوي الكوني وأن لا تحدّ المعطيات النّظريّة الّتي تبشّر بمكانة عالميّة مطمئنة للغتنا مستقبلا من إحساسنا بالمسؤوليّة بقدر ما يجب أن تؤكّدها فينا، لأنّ الفرصة المتاحة نظريّا للّغة العربيّة من أجل تأكيد عالميتها لا يمكن أن تتحقّق عمليّا إلاّ بجهود أبنائها، ولذا ينبغي البحث بجديّة في الخطوات الإجرائيّة لتمكين العربيّة من استغلال ما يتاح لها من فرص. ومبدأ هذا البحث توصيف أفضل الوسائل الّتي ستؤمّن للعربيّة كينونتها العالميّة بامتياز فتحسّن مكانتها بين لغات العالم الحيّة. وهنا نتّفق مع الكثير من الدّارسين ممّن قرأنا لهم على أنّ تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها إحدى أهمّ هذه الوسائل رغم وعينا بما أشاروا إليه وغيرهم من مشاكل تعترض القائمين على هذا المجال نرى أنّ أخطرها مشكل الوعي اللّغوي لدى أبناء العربيّة (5)، فنحن ههنا بإزاء موقفين متباينين نحسب أنّ كليهما مفتقر إلى الموضوعيّة:

– موقف أوّل مغال في التّباهي بالعربيّة يتغنّى بعذوبة صوتها وجمال عبارتها وسحر بيانها(...) دونما نظر فعلي في منزلتها من الواقع اللّغوي العالمي الرّاهن الّذي يتعارض مع ذاك الإطراء.

– موقف ثانٍ مغرق في التّعالي على العربيّة والاستخفاف بها بحيث لا يعدّها أحيانا سوى لغة تراث آن له أن يعلّب ويقبر في متاحف التّاريخ ليشهد على ماض ولّى واندثر.

ويحول التّعارض الصّارخ بين الموقفين دون نجاح تعليم العربيّة للأجانب في تحقيق إشعاعها الكوني وتعزيز مكانتها بين لغات العالم الحيّة ويسهم بشكل أو بآخر في إفشال إرادة الرّاغبين في تعلّمها وحتّى تحويلهم عنها إلى غيرها، إذ يجد الأجنبي الرّاغب في تعلّم العربيّة نفسه بين متّهم له بإضمار سيّئ النّوايا وبأنّه يتعلّم لغتنا بقصد بلوغ غايات ومآرب مشبوهة، وبين من يستخفّ به ويدفعه إلى معاملته بما يحذق من لغات أجنيّة يعتبرها عنوان الرقيّ والتحضّر كالفرنسيّة أو الإنجليزيّة وهو يعتقد في الوقت ذاته أنّ العربيّة في المقابل لغة "متخلّفة"

لا تسمو بشخصه، وكلاهما من العوامل الّتي تحدّ من الدّافعيّة إلى تعلّم العربيّة لدى الطّالب الأجنبي. مع أنّ الحدّ من هذه الدّافعيّة مشوب بخطر أعمق يتمثّل في تلك الرّسالة الّتي يضمّنها من يتعامل بتأثر من هذا الموقف أو ذاك قد يفهم الأجنبي إمّا موقف رفض للآخر فيتصوّر أنّ ثقافتنا ثقافة إقصاء ويذهب في ظنّه أنّ ما يروج عنها من تهم التّعصب والعدائيّة متأصّل في أبنائها حقّا إذا ما صادف أن تعامل مع من ينتصر للموقف الأوّل، أو يفهم أنّ اللّغة العربيّة الّتي يقدم على تعلّمها مبعث للإحساس بالدّونيّة وأنّ تعلّمه إيّاها غير مجد والحال أنّ أبناءها أنفسهم يرغبون عن التّعامل بها إلى التّعامل بغيرها.

4 – تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها مهمّة قوميّة و واجب إنسانيّ:

إذا قلنا إنّ تفهّم الآخر مشكلاتنا جزء لا يتجزّأ من حلّها وخطوة نحو تجاوزها فإنّ معرفة هذا الآخر بلغتنا يصبح أمر إجباريّ لأنّه يتيح له معرفة دقيقة وموضوعيّة لتلك المشكلات ويفتح أمامه المجال أرحب للاطّلاع على قضايانا العادلة من مصادرها فتتكشف له عدالتها منقّاة من كلّ مظاهر التّشويه والتّزييف والتّضليل الّتي قد تشوبها إذا نقلت له بدل أن يستقيها من أصولها. ثمّ إذا كانت المعرفة الصّحيحة بحضارتنا تفرض على الآخر احترامها، كما قد تحمّسه للتّعامل معها بجديّة فإنّ تعلّمه لغتنا سيمكّنه حتما من الاطّلاع على عمقنا الحضاري وأبعاد فكرنا الإنسانيّة الّتي تأكّدت عبر التّاريخ حتّى على ألسنة مفكّري الغرب وكتّابهم (7). وعليه، فإنّ القيام على تعليم الأجانب لغتنا العربيّة لا يقلّ قيمة عن أيّ مهمّة قوميّة نعتبرها واجبا مقدّسا، لأنّه بالمحصلة سبيل نحو تفاعل بنّاء بيننا وبين الأمم الأخرى، ونافذة لامتدادنا الكوني عبر لغتنا.

ولأنّ الامتداد الكوني للّغة العربيّة هو امتداد لحضارتنا أي لنا، فإنّنا نحسب أنّ تعليمها للأجانب واجب تاريخي يمليه علينا واقع العولمة الّتي طالت كلّ شيء حتّى الفكر والثّقافة لتأكيد سيادة النّمط الواحد، رغم أنّنا لا نقصد من تبيان ضرورة نشرها عالميّا تعليمها لغيرنا تكريس النّمطيّة بقدر ما هو ترسيخ لمبدإ الاختلاف الطّبيعي المثمر بتكثيف حضورنا الكوني عبر العربيّة والإسهام في تشكيل فسيفساء حضارة الإنسان. ونرى أنّ رسم هذا الهدف النّبيل واجب كلّ غيور على العربيّة وعلى الإنسانيّة في ذات الوقت لأن لا تعارض عندنا بين الذّاتي والإنساني فينا. ثمّ إنّ هذا الامتداد الإنساني في العربي لا يمكن أن يكون بعزلة عن الامتداد العالمي للغته، فما يميّزه عن سائر شعوب المعمورة هو الارتباط الوثيق بين هويّته ولغته. "وإذا كان لا بدّ من مقياس مدرج للعروبة، فليس جنسا هو، ليس بكميّة الدّم العربي الّتي أضيفت،

ولكنّه كميّة اللّسان العربي الّتي استعيرت. بمعنى آخر، مقياس العروبة، مثلما هو أساسها، اللّغة لا الجنس" على حدّ قول جمال حمدان في كتابه "شخصيّة مصر"(8). فالانتماء للعروبة يشترط اللّغة العربيّة دليل هويّة. وإذا كان هذا يعني أنّ لنا خصوصيّتنا الّتي ينبغي أن نحصّنها فلا يعني في ذات الوقت أن نتجاهل المشترك الإنساني الأعظم في القيم والمبادئ العامّة وقد استحال اليوم واقعا ملموسا. ومن المؤكّد أنّ وضع هذا وذاك في الحسبان سيدفعنا أكثر نحو البحث في آليات تعليم العربيّة لغيرنا وسنعرف حينئذ كيف نعلّم هؤلاء لغتنا وماذا نعلّمهم منها، وما فضل تعليمهم على العربيّة أوّلا وعلى هويّتنا ثانيا ثمّ على الإنسانيّة ثالثا. فشيوع العربيّة في العالم يدعم امتدادنا الإنساني، وامتدادنا بتلك الخصوصيّة المبثوثة في لغتنا الملتحمة بها أصلا يؤمّن لهذا الامتداد دوره في تأكيد التّنوع الثّقافي العالمي بما يضمن ثراء الثّقافة الإنسانيّة الّتي أصبح يقوّضها نظام النّمط الواحد.

ونعتقد أنّ وعي أبناء العربيّة، ولا سيما من يقومون على جهود تعليمها للنّاطقين بغيرها، بنبل هذه المهمّة وما تتمخض له من غايات قوميّة تتشابك مع مقاصد إنسانيّة لا نشكّ في قدسيّتها سيجعلها في منزلة الواجب. ولكن في المقابل أليس ضمان سيادة لغويّة وتأمينها من أخطار تتهدّدها جرّاء الغزو الثّقافي هو الضّامن لاضطلاع العربيّة بما نزعم لها من مهمّة كونيّة إنسانيّة ؟ فإذا ما كان الجواب بالإيجاب وبحثنا في آليات تحقيق تلك السّيادة حقّ لنا التّساؤل عمّ إذا كان تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها آليّة من آليات تحقيقها؟

5 – تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها؛ من أجل سيادة لغويّة:

نعتقد أن التّفكير في سيادة الأمّة والمحافظة على معالم هويّتها الحضاريّة وإن اختلفت مبادئه وتعدّدت آلياته فإنّه ينبغي أن لا يغفل عن دور اللّغة في تحصين هذه السّيادة، وهو ما جعل بعض الباحثين يبتدعون مفهوم "السّيادة اللّغويّة" (9)، ويحذّرون ممّا يروج بين أبناء الأمّة ولا سيما مثقّفيها من أفكار حيال الإرث اللّغوي الثّقافي الاستعماري الّذي عملت الأنظمة الاستعماريّة على تجذيره في شخصيّة الأمّة خلال مؤسّساتها وثقافتها الاجتماعيّة حتّى صار الكثيرون يفتخرون عن وعي أو عن غير وعي بذلك الإرث وينادون بتحصينه من الإتلاف بوصفه عندهم مكسبا مهمّا في طريق الرّقي الحضاري للأمّة. وقد غاب عن هؤلاء في المقابل أنّ ما ينادون به يتعارض تعارضا صارخا مع مبدأ المحافظة على الهويّة الوطنيّة أو القوميّة

ويؤدّي حتما إلى تهميش اللّغة العربيّة وثقافتها. كما غاب عنهم أنّ الشّعوب الفاقدة لسيادتها اللّغويّة عاجزة أبدا عن الاستقلال في صنع مستقبلها وتأمينه على المدى البعيد.

وخلافا لما قد يبدو في نقد الموروث اللّغوي الثّقافي الاستعماري من رفض للّغات الأجنبيّة مثل الفرنسيّة والإنجليزيّة مثلا بوصفهما لغتيْ الإرث الاستعماري، فإنّنا نعتقد أنّ ذلك النّقد إذا بني على أسس موضوعيّة جعل تعلّم اللّغات الأجنبيّة، وفي مقدّمتها اللّغة الإنجليزيّة، مطلوبا. وصار بموجبه تعليم لغة ثانية على الأقلّ من ثوابت مؤسّسات التّربية والتّعليم من أجل معرفة ثريّة نودّ أن ينعم بها أبناء العربيّة، على أن يكون تعليم اللّغة الثّانية بوعي حتّى لا يؤدّي من حيث نشعر أو لا نشعر إلى "الازدواجيّة اللّغويّة الأمّارة" (9) الّتي تضرّرت من تبعاتها الأجيال العربيّة منذ الاستعمار ولا تزال.

ولمّا كانت السّيادة مطلوبة لكلّ أمّة حتّى تحافظ على هويّتها دون أن تضطرّ إلى التّقوقع والانغلاق، وبما أنّ لهذه السّيادة وجوه نعرف منها ما يتّصل بمنعة التّراب وتأمين الحدود وما يتعلّق بالأمن الغذائي والاستقلال الاقتصادي فضلا عن استقلال القرار وضمان عدم التّدخل في الشأن الوطني أو القومي، وكلّ تلك الوجوه مطلوبة، بل وحتميّة، فإنّ ما يعرف اليوم بـ"السّيادة اللّغويّة"، وتبعا لتشابك العلاقات بين اللّغة وسائر مكوّنات شخصيّة الأمّة خصوصا بالنّسبة إلى العربيّة كما بيّنا سلفا، يصبح شرطا أساسيّا لاستقلال الأمّة وقدرتها على القيام بدورها القومي والإنساني أي أداء واجبها تجاه ذاتها وتجاه الإنسان.

وعليه، فإنّ "السّيادة اللّغوية" من سيادة الأمّة ليس على جهة التّجزئة ولكن على جهة التّشارط والتّعالق الّذي إذا ما انفكّ تفكّكت أواصل الهويّة الحضاريّة. ولمّا كانت هذه السّيادة ضرورة حتميّة يعني الحفاظ عليها التّمكين للهويّة، فإنّ في أيّ جهد لإشاعة العربيّة والتّرفيع في عدد المتكلّمين بها في العالم أمر تحصين لهويّتنا من أن تنمحي معالمها في زحام العولمة الّتي قد تستحيل" اغتصابا لتلك لعناصر الهويّة الثّقافيّة مجتمعة وإفراغ لها من كل محتوى قصد تفتيتها وتشتيتها بربط الأفراد بعالم اللاّوطن واللاّأمة واللاّدولة واللاّخصوصية" (10)، ولا مرية

حينئذ في أنّ تعليمها للنّاطقين بغيرها ضمانة من ضمانات تلك "السّيادة اللّغويّة" الّتي لا تعدو أن تكون جزءا لا يتجزأ من سيادة الأمّة بل ربّما ترقى إلى أن تكون عنوانها.

فاللّغة إذن، وكما ورد عن الدكتور التّويجري المدير العام الإيسيسكو في مقدمته لمجموعة بحوث في اللّغة العربيّة والعولمة "جزء لا يتجزأ من السّيادة، والحفاظ على اللّغة هو حماية لهذه السيّادة. ولذلك فإنَّ التحدّي الأكبر الّذي سيواجه اللّغة العربيّة في المستقبل هو الحفاظ على خصوصياتها وضمان استمرارها وإشعاعها" (11).

ونحن إذ نرى هذا الرّأي فإنّنا نقرّ بالتّحديات الّتي يواجهها أيّ مسعى للتّوفيق بين الخصوصيّة الثّقافيّة المتأصّلة في اللّغة العربيّة والامتداد العالمي الّذي يجب أن يتحقّق لها وأن يستمرّ دون أن يكون على حساب تلك الخصوصيّة لا سيما في ضوء غياب الوعي بالمهمّة القوميّة إزاءها من قبل أبنائها أو ضعفه. ونحسب حينئذ أنّ التّفكير في سياسة لغويّة قوميّة للّغة العربيّة لا يحتمل التّأجيل حتّى لا تبقى البحوث والدّراسات و وجهات النّظر الّتي تقدّم مجرّد، جهود معزولة لا تلزم سوى أصحابها، على أهميّتها لا في مستوى الطّرح فقط، ولكن في مستويات التّشخيص والمعالجة والاستشراف أيضا (12).

خاتمة:

هذا تصوّر سقناه في علاقة تعليم العربيّة للأجانب بصنع السّيادة اللّغويّة وتحصينها، بيّنا خلاله ما بين اللّغة وشخصيّة الأمّة من تلازم في وضعيّات الرّقي والتّراجع وكشفنا عن التّداخل بينهما، واستدللنا في الحين عن تأكّد الإحاطة باللّغة وحتميّة السّهر على إشاعة استعمالها من أجل تحصين شخصيّة الأمّة من الآثار السّلبيّة للمدّ الكوني الّذي خصّت به العولمة لغات مثل الإنجليزيّة.

كما حاولنا أن نبرز أهمّ مظاهر الصّراع بين اللّغات على المكانة العالميّة والبحث في حظّ العربيّة منه في فكر أبنائها، فأشرنا إلى واقع ذاك الصّراع الشّديد الّذي تخوضه الدّول المتقدّمة لفرض لغاتها عالميّا عبر توسيع رقعة تعلّمها بين الأجانب غير النّاطقين بها. ثمّ أوردنا بعض العوامل المحفّزة على تعليم العربيّة للأجانب النّاطقين بغيرها من خلال ما أقرّ الباحثون للّغة العربية من فرص تنزّلها في المستقبل لغة إقليمية ودولية مؤهّلة لدور رياديّ في

العالم. ولذلك اعتبرنا أنّ تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها مهمّة قوميّة و واجب إنسانيّ، وبرّرنا كيف يستوي هذا وتلك في نفس الوقت، فكشفنا عن التّقاطع العميق بين المهمّة القوميّة والمهمّة الإنسانيّة الكونيّة الّتي تنتظر القائمين على تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها.

وأنهينا بحثنا بما استخلصناه من وشائج دقيقة تربط بين مفاهيم السّيادة وشخصيّة الأمّة والهويّة الحضاريّة من جهة وبين تعليم اللّغة للأجانب من جهة ثانية لتأكيد ضرورة الحرص على استرجاع السّيادة المفقودة أي "السّيادة اللّغويّة" وتحصينها. ونبّهنا إلى أن لا ضمانة لذلك إلاّ بـ"سياسة لغويّة قوميّة" يجتمع عليها كلّ أبناء العربيّة.

وفي المحصلة، فإنّنا لا ندّعي لبحثنا سوى أنّه محاولة للنّظر في شأن من شؤون لغتنا هو تعليمها للنّاطقين بغيرها، لا على سبيل توصيف المناهج والآليات وإنّما على جهة التّوظيف للبتّ في أعمق شواغل الأمّة الرّاهنة.

---

1) – الجمالي (د. فاضل)، دفاعا عن العربيّة. نشر وتوزيع مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996، ص 20.

2) – فارس (فتحي) و الشّارني (مجيد)، مداخل إلى تعليميّة اللّغة العربيّة، سلسلة التربية [العربيّة]، دار محمّد علي الحامي للنّشر، تونس. ط 1، 2003. ص 107– 108.

3) – Hymes D, Vers la compétence de communication, tr. française, 1984, Hatier- Credif, Paris.

4) – ينظر: د. عبده عبّود، "تعليم العربيّة للأجانب ومكانتها الدّوليّة"، قسم الآداب والعلوم الإنسانيّة بمنتدى العربيّة، موقع الجمعيّة الدّوليّة للمترجمين واللّغويين العرب.

5) – ينظر السّابق، حيث أشير إلى عديد المشاكل الّتي تسهم مع غياب الوعي اللّغوي في عرقلة جهود القائمين على تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها كشأن قلّة التّمويل وغياب التّنسيق بين المؤسّسات الفاعلة في المجال فضلا عن فتور الجهود البحثيّة وافتقارها كثيرها إلى التّأطير العلمي والتّوجيه مع استقالة الجاليات العربيّة ببلاد المهجر عن مسؤوليتها القوميّة إذا استثنينا بعض الجهود المعزولة لمنظّمات وهيئات حكوميّة أو أهليّة وعدم التّحمس لمساعدة المؤسّسات التّعليميّة الأجنبيّة الّتي تعنى بتعليم العربيّة.

6) – يراجع الفصل الثّالث (منزلة اللّغة العربيّة وإشكالياتها اليوم) من كتاب: "السّياسة القوميّة للّغة العربيّة"، تأليف: المبخوت (شكري)– الوغلاني (خالد)– الشّيباني (محمّد)، تنسيق: العبد الله (لطوف)،

مشروع النّهوض باللّغة العربيّة للتوجّه إلى مجتمع المعرفة (الحلقة الثّالثة)، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، تونس 2010، الصّفحات 41-43 خصوصا.

7) – السيّد (محمود أحمد)، اللّسانيّات وتعليم اللّغة، دار المعارف للطّباعة والنّشر. سوسة – تونس. ط 1، 1998. ص 207 – 210، حيث يشير إلى ما قاله الكاتب الإسباني القديم "Alvaro" في القرن التّاسع وهو يعبّر عن تألّمه جرّاء شيوع العربيّة على حساب اللاّتينية، وما قاله "رافاييل بيتي" R. Patai (1976) حديثا في كتابه "The Arabic Mind" حيث يمجّد العربيّة، ثمّ ما قاله "ارفينج" Ivring.T.B (1977) مشيدا بالقدرة الاشتقاقيّة للعربيّة. وهي إجمالا أقوال تكشف عن قدرة اللّغة العربيّة على أداء مهمّتها الكونيّة، ومن ثمّة على ضرورة تعليمها لغير أبنائها حتّى تتيسّر لها هذه المهمّة.

8) – حمدان (جمال)، "شخصيّة مصر" (الوسيط – دراسة في عبقريّة المكان). أو ينظر ضمن الشّوباني (شرف)، لتحيا اللّغة العربيّة يسقط سيبويه، نشر مدبولى الصغير، مصر،2004، ص 221.

9) – الذّوادي (محمود)، أيّ معنى للثّورة التّونسيّة دون استرجاعها للسّيادة المفقودة ؟ مجلّة "الحياة الثّقافيّة"، العدد 220، تونس: فيفري/ مارس 2011، ص 10 – 20، ينظر خاصّة (صمت عن الاستعمار اللّغوي الثّقافي).

10) – ينظر: يفوت (سالم)، "الهويّة والعولمة" ضمن مقال بعنوان: "هويتنا الثّقافية والعولمة، نحو تناول نقدي". ص 4.

11) – ينظر مقدّمة الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري ضمن "اللّغة العربيّة والعولمة"، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتّربية والعلوم والثّقافة –إيسيسكو– 2008. وكذلك بحثه حول (اللّغة العربية وتحدّيات العولمة : رؤية لاستشراف المستقبل) الّذي ألقاه أمام الدّورة الرّابعة والسبعين لمجمع اللّغة العربية بالقاهرة 2008.

12) – ينظر مثلا: المبخوت (شكري)– الوغلاني (خالد)– الشّيباني (محمّد)؛ "السّياسة القوميّة للّغة العربيّة" (مذكور أعلاه).